عبد الرحمن الكواكبي
1848 –1902

من بيت في "حلب" يعتزّ بنسبة وحسبه وعلمه وجاهه وماله؛ فأسرة الكواكبي كانت فيها نقابة الأشراف في حلب، ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية، وأبوه أحد المدرسين في الجامع الأموي بحلب والمدرسة الكوكبية فيها. تعلم كما كان يتعلَّم ناشئة زمانه الدينيون؛ لغة عربية ودين في مدرسة أسرته بحلب -"المدرسة الكواكبية"- وكانت مدرسة تسير على الطريقة الأزهرية فيما يقرأ من كتب، وما يتبع من منهج، ولكنه أكمل نفسه بقراءته بعض العلوم الرياضية والطبيعية، وأحضر له والده مَنْ علّمه الفارسية والتركية، وطالع بنفسه كثيرا من الكتب التاريخية، وعُنى بدراسة قوانين الدولة العثمانية.

فلما أتم دراسته انغمس في الحياة العملية، وتّنوعت أعماله، وتباينت اتجاهاته فمن محرر لجريدة رسمية، إلى رئيس كتاب المحكمة الشرعية؛ إلى قاض شرعي في بلدة من البلاد السورية، إلى رئيس البلدية. ثم هو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشئ لنفسه جريدة في "حلب" اسمها الشّهباء، أو يشتغل بالأعمال التجارية، أو يقوم بمشروعات عمرانية.

أما كتاب "طبائع الاستبداد"، فقد نشره-أولاً- مقالاتٍ في بعض الصحف عندما كان في مصر سنة 1900، ثم جمعها في كتاب وقال في مقدمته "أنى نشرت في بعض الصحف أبحاثاً علمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، منها ما درسته، ومنها ما اقتبسته، غيرَ قاصدٍ بها ظالماً بعينه، ولا حكومةً مخصصة، إنما أردت بذلك تنبه الغافلين لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه، فلا يعتِبون على الأغيار، ولا على الأقدار؛ ثم أضفت إليها بعض زيادات، وحولتها إلى هيئة هذا الكتاب".

وقد اقتبس فيه كثيرا من أقوال "أَلْفِيرى"، وألفيرى "Alfieri Vittoria"، كاتب إيطالي عاش من سنة 1749 - 1803م، من بيت نبيل، وقد ساح في أوروبا نحو سبع سنوات، ودرس كتب فولتير ورُوسُّو ومنتيسكيو، وتشبع بآرائهم الحرة وتعشّق الحرية وكره الاستبداد أشدّ الكره، ووجّه أدبه للتغني بالحرية ومناهضة الاستبداد، يُنطق بذلك أبطال رواياته، ويبثه في كتاباته. ولكن الكواكبّي هضمها وعدّلها بما يناسب البيئة الشرقية والعقلية الإسلامية، وزاد عليها من تجاربه وآرائه.

أما كتابه الثاني "أم القرى" فأدلّ على الابتكار وأوضح في إظهار الشخصية، يقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض، يفحص داءه ويتعرف أسبابه ويصف علاجه في أسلوب قصصيّ جذاب تحدَّث فيه عن جمعية من المسلمين عُقدت في مَكَّة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامّي -واجتمعوا كلهم قبيلَ الحج في مكان متطرف في مكة يتداولون في حال المسلمين.

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد*

ما هو الاستبداد

الاستبداد لغة هو غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة والاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة. ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة لأنها أعظم مظاهر اضراره التي جعلت الانسان اشقى ذوي الحياة. وأما تحكم النفس على العقل، وتحكم الاب والاستاذ والزوج، ورؤساء بعض الأديان، وبعض الشركات، وبعض الطبقات، فيوصف بالاستبداد مجازا مع الاضافة.

الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو تصرف فرد او جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة (استبداد) كلمات: استعباد، واعتساف، وتسلط، وتحكم. وفي مقابلتها كلمات: مساواة، وحس مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة. ويستعملون في مقام صفة (مُستبِد) كلمات: جبار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة (حكومة مُستبِدة) كلمات: عادلة ومسئولة، ومقيدة، ودستورية. ويستعملون في مقاوم وصف الرعية (الْمُسْتَبَد عليهم) كلمات: اسرى، ومستصغرين، وبؤساء، ومستنبتين[1]، وفي مقابلتها: احرار، واباة، واحياء، واعزاء.

هذا تعريف الاستبداد باسلوب ذكرْ المرادفات والمقابلات، واما تعريفه بالوصف فهو ان الاستبداد صفة للحكومة المُطْلَقة العنان فعلاً او حكماً التى تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين. وتفسير ذلك هو كون الحكومة اما هي غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة، أو على امثلة تقليدية، او على ارادة الامة، وهذه حالة الحكومات المطلقة. او هي مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها إبْطَال قوة القيد بما تهوى، وهذه حالة اكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالمقيدة او بالجمهورية.

واشْكَال الحكومة المستَبِدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها. ويكفي هنا الاشارة الى ان صفة الاستبداد، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة او الوراثة، تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد المنتخب متى كان غير مسؤول، وتشمل حكومة الجمع ولو منتخبا لان الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وانما قد يعد له الاختلاف نوعا، وقد يكون عند الاتفاق اضر من استبداد الفرد. ويشمل ايضاً الحكومة الدستورية المفرقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن القوة المراقبة لان الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية فيكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين، وهؤلاء مسؤولون لدى الامة، تلك الامة التي تعرف انها صاحبة الشأن كله وتعرف ان تراقب وان تتقاضى الحساب.

---

* المصدر: عبد الرحمن الكواكبي . طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. 1902 ط[1] ، أعيد طباعته المطبعة العصرية حلب 1957.

[1] الاستنبات او التنبت من اصطلاحات الفرنج يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات.

واشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية. ولنا ان نقول كلّما قلّ وصف من هذه الاوصاف خف الاستبداد الى ان ينتهي بالحاكم المنتخب المؤقت المسؤول فعلا. وكذلك يخف الاستبداد طبعاً كلّما قلّ عدد نفوس الرعية وقل الارتباط بالاملاك الثابتة وقل التفاوت في الثروة وكلما ترقى الشعب في المعارف. ان الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه كما جرى في صدر الاسلام في ما نقم على عثمان ثم على علي رضي الله عنهما...

ومن الامور المقررة طبيعة وتاريخياً انه ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب غفلة الأمة او التمكن من اغفالها الا وتُسَارِعُ الى التَلَبُسْ بصفة الاستبداد، وبعد ان تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها احدى الوسيلتين العظيمتين: جهالة الامة، والجنود المنظمة. وهما اكبر مصائب الامم واهم مصائب الانسانية، وقد تخلصت الامم المتمدنة نوعا من الجهالة، ولكن بليت بشدة الجندية الجبرية العمومية؛ تلك الشدة التي جعلتها اشقى حياة من الأمم الجاهلة والصق عاراً بالانسانية من اقبح اشكال الاستبداد حتى ربما يصح ان يقال ان مخترع هذه الجندية اذا كان هو الشيطان فقد انتقم من آدم في اولاده اعظم ما يمكنه ان ينتقم! نعم اذا دامت هذه الجندية التي مضى عليها نحو قرنين الى قرن آخر أيضاً تنهك تجلد الامم وتجعلها تسقط دفعة واحدة. ومن يدري كم يتعجب رجال الاستقبال من ترقي العلوم في هذا العصر ترقياً مقرونا باشتداد هذه المصيبة التي لا تترك محلا لاستغراب اطاعة المصريين للفراعنة في بناء الاهرامات سُخْرَة، لان تلك لا تتجاوز التعب وضياع الاوقات، واما الجندية فتفسد اخلاق الامة حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال وتميت النشاط وفكرة الاستقلال وتكلف الأمة الانفاق الذي لا يطاق، وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم: استبداد الحكومات القائدة لتلك القوة من جهة، واستبداد الامم بعضها على بعض من جهة اخرى...

من اقبح انواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل

ويسمي استبداد المرء على نفسه وذلك ان الله جلّت نعمه خلق الانسان حراً قائده العقل فكفر وأبى الا ان يكون عبداً قائده الجهل، خلقه وسخر له أماً وأباً يقومان بأوده الى ان يبلغ اشده، ثم جعل له الارض اما والعمل ابا، فكفر وما رضي الا ان تكون امته امه وحاكمه اباه. خلق له ادراكا ليهتدي الى معاشه ويتقي مهلكه، وعينين ليبصر، ورجلين ليسعى، ويدين ليعمل، ولسانا ليكون ترجمانا عن ضميره، فَكَفَر وما احب الا ان يكون كالأبله الاعمى، المُقْعَدْ، الاشل، الكذوب، ينتظر كل شيء من غيره، وقلما يطابق لسانه جنانه. خلقه منفرداً غير متصل بغيره ليملك اختياره في حركته وسكونه فكفر وما استطاب إلا الارتباط في ارض محدودة سماها الوطن، وتشابك بالناس ما استطاع اشتباك تظالم لا اشتباك تعاون... خلقة ليشكره على جعله عنصراً حياً بعد ان كان ترابا، وليلجأ اليه عند الفزع تثبيتاً للجنان، وليستند عليه عند العزم دفعاً للتردد، وليثق بمكافأته

او مجازاته على الأعمال، فكفر وأبى شكره وخلط في دين الفطرة الصحيح بالباطل ليغالط نفسه وغيره. خلقه يطلب منفعته جاعلاً رائده الوجدان، فكفر واستحل المنفعة باي وجه كان فلا يتعفف عن محظور صغير الا توصلا لمحرم كبير. خلقه وبذل له مواد الحياة، من نور ونسيم ونبات وحيوان ومعادن وعناصر مكنوزة في خزائن الطبيعة بمقادير ناطقة بلسان الحال بان واهب الحياة حكيم خبير جعل مواد الحياة الاكثر لزوما في ذاته، اكثر وجودا وابتذالا. فكفر الانسان نعمة الله وابى ان يعتمد كفالة رزقه فوكله ربه الى نفسه وابتلاه بظلم نفسه وظلم جنسه وهكذا كان الانسان ظلوماً كفوراً.

الاستبداد يد الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الآبقين من جنة عبوديته الى جهنم عبودية الْمُسَتِبدين الذي يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهاراً وقد ورد في الخبر: (الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه)، كما جاء في اثر آخر، (من أعان ظالما على ظلمه سلطه الله عليه) ولا شك في أن إعانة الظالم تبتدأ من مجرد الاقامة في ارضه.

الاستبداد هو نار غضب الله في الدنيا، والجحيم نار غضبه في الآخرة وقد خلق الله النار اقوى المطهرات فيطهر بها في الدنيا دنس من خلقهم احرارا وبسط لهم الارض واسعة وبذل فيها رزقهم، فكفروا بنعمته ورضخوا للاستعباد والتظالم.

الاستبداد اعظم بلاء يتعجل الله به الانتقام من عباده الظالمين ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الانفة. نعم، الاستبداد اعظم بلاء لانه وباء دائم بالفتن وجدب مستمر بتعطيل الاعمال، وحريق متواصل بالسلب والغصب، وسيل جارف للعمران، وخوف يقطع القلوب، وظلام يعمي الابصار، والم لا يفتر، وصائل لا يرحم، وقصة سوء لا تنتهي. واذا سأل سائل لماذا يبتلي الله عباده بالمستبدين؟ فابلغ جواب مسكت هو: ان الله عادل مطلق لا يظلم أحداً، فلا يُوَلى المستبد الا على المستبدين. ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من اسراء الاستبداد مستبداً في نفسه لو قُدِرَ لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى وربه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره. فالمستبدون يتولاهم مستبد والاحرار يتولاهم الاحرار، وهذا صريح معنى: (كما تكونوا يُولّى عليكم). ما اليق بالاسير في ارض ان يتحول عنها الى حيث يملك حريته فان الكلب الطليق خير حياة من الاسد المربوط.

الاستبداد والتخلص منه

وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر؛ وهو المعترك الاكبر لأفكار الباحثين، والميدان الذي قلّ في البشر من لا يجول فيه على فيل من الفكر، او على جمل من الجهل، او على فرس من الفراسة، او على حمار من الحمق، حتى جاء الزمن الأخير فَجَال فيه انسان الغرب جولة المغوار ، الممتطي في التدقيق مراكب البخار. فقرر بعض قواعد اساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب، وحصحص فيها الحق اليقين، فصارت تعد من المقررات الاجماعية عند الامم المترقية؛ ولا تعارض ذلك كون هذه الامم لم تزل ايضا منقسمة الى احزاب سياسية يختلفون شيعا،

لان اختلافهم هو في وجوه تطبيق تلك القواعد وفروعها على احوالهم الخصوصية. وهذه القواعد التي قد صارت قضايا بديهية في الغرب، لم تزل مجهولة، اوغريبة، او منفوراً منها في الشرق، لانها عند الاكثرين منهم لم تطرق سمعهم، وعند البعض لم تنل التفاتهم وتدقيقهم، وعند آخرين لم تحز قبولا، لانهم ذوو غرض، او مسروقة قلوبهم، او في قلوبهم مرض.

واني أطرح لتدقيق المطالعين رؤوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحياة السياسية وقبل ذلك اذكرهم بأنه قد سبق في تعريف الاستبداد بابه:"هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الامة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم ". كما استلفت نظرهم الى انه لا يوثق بوعد من يتولى السلطة اياً كان، ولا بعهده ويمينه على مراعاة الدين، والتقوى، والحق، والشرف، والعدالة، ومقتضيات المصلحة العامة؛ وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور على لسان كل بِّر وفاجر. وما هي في الحقيقة الا كلام مبهم فارغ، لان المجرم لا يعدم تأويلا، ولان من طبيعة القوة الاعتساف، ولان القوة لا تقابل الا بالقوة.

المباحث التي اريد طرحها لتدقيق المطالعين

1. **مبحث ما هي الأمة أي الشعب :**
هل هي ركام مخلوقات نامية، أو جمعية عبيد لمالك مُتغلب وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كُرهاً؛ أم هي جمع بينهم روابط دين أو جنس أو لغة ووطن، وحقوق مشتركة، وجامعة سياسية اختيارية، لكل فرد حق إشهار رأيه فيها توفيقاً للقاعدة الاسلامية التي هي أسمى وأبلغ قاعدة سياسية وهي : "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"؟
2. **مبحث ما هي الحكومة :**
هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع، يتصرف في رقابهم، ويتمتع بأعمالهم يفعل بهم بارداته ما يشاء، أم هي وكالة تقام بارداة الأمة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العامة؟
3. **مبحث ما هي الحقوق العمومية :**
هل هي حقوق آحاد الملوك، ولكنها تضاف للأمم مجازاً، ام بالعكس هي حقوق جموع الامم، وتضاف للملوك مجازاً. ولهم عليها ولاية الامانة والنظارة الى مثل الأراضي والمعادن، والأنهر والسواحل، والقلاع والمعابد، والأساطيل والمعدات، وولاية الحدود، والحراسة على مثل الأمن العام، والعدل والنظام، وحفظ وصيانة الدين والآداب، والقوانين والمعاهدات، والاتجار، الى غير ذلك مما يحق لكل فرد من الامة أن يتمتع به وان يطمئن عليه ؟
4. **مبحث التساوي في الحقوق :**

هل للحكومة التصرف في الحقوق العامة المادية والأدبية كما تشاء بذلاً وحرماناً. أم تكون الحقوق محفوظة للجميع على التساوي والشيوع، وتكون المغانم والمغارم العمومية موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والاديان بنسبة عادلة، ويكون الافراد متساوون في حق الاستنصاف؟

5. **مبحث الحقوق الشخصية :**

هل الحكومة تملك السيطرة على الاعمال والافكار. أم أفراد الامة أحرار في الفكر مطلقاً، وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي، لأنهم ادرى بمنافعهم الشخصية، والحكومة لا تتدخل إلا في الشؤون العمومية؟

6. **مبحث نوعية الحكومة :**

هل الأصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام، أم الملكية المقيدة، وما هي القيود؟ أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة أو المؤقتة الى أجل؟ وهل تُنال الحاكمية بالوراثة، أو العهد ، أو الغلبة؟. وهل يكون ذلك كما تشاء الصدفة، أم مع وجود شرائط الكفاءة وما هي تلك الشرائط، وكيف يصير تحقيق وجودها، وكيف يراقب استمرارها، وكيف تستمر المراقبة عليها؟

7. **مبحث ماهي وظائف الحكومة :**

هل هي ادارة شؤون الامة حسب الرأي والاجتهاد. أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الأمة وان خالف الاصلح، واذا اختلفت الحكومة مع الأمة في اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة ان تعتزل الوظيفة؟

8. **مبحث حقوق الحاكمية :**

هل للحكومة أن تختص بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة، ورواتب المال. وتحابي من تريد من حقوق الأمة وأموالها؟. أم يكون التصرف في ذلك كله اعطاءً وتحديداً ومنعا منوطاً بالامة.

9. **مبحث طاعة الامة للحكومة :**

هل الارادة للامة وعلىالحكومة العمل، ام الارادة للحكومة وعلى الامة الطاعة، وهل للحكومة تكليف الامة طاعة عمياء بلا فهم ولا اقتناع، ام عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والاذعان لتتأتى الطاعة باخلاص وأمانة.

10. **مبحث توزيع التكليفات :**

هل يكون وضع الضرائب مفوضاً لرأي الحكومة، أم الأمة تقرر النفقات اللازمة وتعيين موارد المال، وتُرتب طرائق جبايته وحفظه ؟

11. **مبحث اعداد المنعة :**

هل يكون اعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعداداً للدفاع مفوضاً لارادة الحكومة اهمالاً، أو اقلالاً، أو إكثاراً، أو استعمالاً على قهر الامة، أم يلزم ان يكون ذلك برأي الامة وتحت أمرها، بحيث تكون القوة منفذة رغبة الامة لا رغبة الحكومة ؟

12. **مبحث المراقبة على الحكومة :**

هل تكون الحكومة لاتُسأل عما تَفعل، أم يكون للامة حق السيطرة عليها لأن الشأن شأنها، فلها ان تنيب عنها وكلاءلهم حق الاطلاع على كل شيء وتوجيه المسؤولية علىاي كان، ويكون أهم وظائف النواب حفظ الحقوق الأساسية المقررة للامة على الحكومة؟

13. **مبحث حفظ الامن العام :**

هل يكون الشخص مكلفا بحراسة نفسه ومتعلقاته، أم تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيماً ومسافراً حتى من بعض طوارىء الطبيعة بالحيلولة لا بالمجازاة والتعويض؟

14. **مبحث حفظ السلطة في القانون :**

هل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهي على الأفراد برأيها أي بدون الوسائط القانونية، إلا في ظروف مخصوصة ومؤقتة؟

15. **مبحث تأمين العدالة القضائية :**

هل يكون العدل ما تراه الحكومة، ام ما يراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق، ومن كل ضغط حتى ضغط الرأي العام؟

16. **مبحث حفظ الدين والآداب :**

هل يكون للحكومة سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر، أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين، والجنسية، واللغة، والعادات، والآداب العمومية، على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزواجر؛ ولا تتداخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنهك حرمته؛ وهل السياسة الاسلامية سياسة دينية، أم كان ذلك في مبدأ ظهور الاسلام، كالادارة العرفية عقب الفتح؟

17. **مبحث تعيين الاعمال بقوانين :**

هل يكون في الحكومة، من الحاكم الى البوليس، من يُطَلَقْ له عنان التصرف برأيه وخبرته، أم يلزم تعيين الوظائف، كلياتها وجزيئاتها، بقوانين صريحة واضحة، لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة، إلا في حالات الخطر الكبير؟

18. **مبحث كيف توضع القوانين :**

هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الأكبر، او رأي جماعة ينتخبهم لذلك. أم يضع القوانين جمع مُنتَخَبْ من قبل الكافة عارفين حتماً بحاجات قومهم وما يلائم طبائعهم ومواقعهم وصوالحهم، ويكون حكمه عاماً أو مختلفاً على حسب تخالف العناصر والطبائع وتغير الموجبات والأزمان؟

19. **مبحث ما هو القانون وقوته :**

هل القانون هو أحكام يحتج بها القوي على الضعيف، أم هو أحكام منتزعة من روابط الناس بعضهم ببعض، وملاحظ فيها طبائع أكثرية الافراد، ومن نصوص خالية من الإبهام والتعقيد وحكمها شامل كل الطبقات، ولها سلطان نافذ قاهر مصون من مؤثرات الاغراض، والشفاعة، والشفقة، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للامة فيكون محترماً عند الكافة، مضمون الحماية من قبل كل افراد الامة؟

20. **مبحث توزيع الأعمال والوظائف :**

هل يكون الحظ في ذلك مخصوصاً بأقارب الحاكم وعشيرته ومُقَربيه أم توزيع كتوزيع الحقوق العامة عل كافة القبائل والفصائل، ولو مناوبه مع ملاحظات الاهمية والعدد، بحيث يكون رجال الحكومة نموذجاً من الأمة، او هم الأمة مصغرة. وعلى الحكومة إيجاد الكفاءة والاعداد ولو بالتعليم الاجباري؟

21. **مبحث التفريق بين السلطات السياسية والتعليم :**

هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في شخص واحد. ام تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها باتقان، ولا اتقان الا بالاختصاص، وفي الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية : "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه" ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة.

22. **مبحث الترقي في العلوم والمعارف :**

هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كي لا يقوى نفوذ الأمة عليها، أم تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائي عموميا بالتشويق او الاجبار، وبجعل الكمالي منه سهلاً للمتناول. وجعل التعليم والتَعَلُمْ حراً مطلقاً؟

23. **مبحث التوسيع في الزراعة والصنائع والتجارة :**
هل يترك ذلك للنشاط المفقود في الامة. أم تُلزَمْ الحكومة بالاجتهاد في تسهيل مضاهاة الأمم السائرة، لاسيما المزاحمة والمجاورة، كيلا تهلك الأمة بالحاجة لغيرها أو تضعف بالفقر.

24. **مبحث السعي في العمران :**
هل يُترَكْ ذلك لأهمال الحكومة المميت لعزة نفس السكان، أو لانهماكها فيه إسرافاً وتبذيراً؛ أم تحمل على اتباع الاعتدال المتناسب مع الثروة العمومية.

25. **مبحث السعي في رفع الاستبداد :**
هل ينتظر ذلك من الحكومة ذاتها. أم نوال الحرية ورفع الاستبداد رفعاً لا يَترُكْ مجالا لعودته من وظيفة عقلاء الامة وسراتها!؟

هذه خمسة وعشرون مبحثاً، كل منها يحتاج إلى تدقيق عميق، وتفصيل طويل، وتطبيق على الأحوال والمقتضيات الخصوصية. وقد ذكرت هذه المباحث تَذْكِرْة للكتاب ذوي الألباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها بترتيب، إتباعاً لحكمة إتيان البيوت من أبوابها. وإني أقتصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث الأخير منها فقط، أعني مبحث السعي في رفع الاستبداد فأقول :

1. الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .
2. الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج .
3. يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يسُتبدل به الاستبداد .

هذه قواعد رفع الاستبداد وهي قواعد تبعد آمال الاسراء ، وتسّر المستبدين، لأن ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم. ولهذا أُذكّر المستبدين بما أنذَرهم به الفياري المشهور حيث قال: " لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد إحتياطه فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير " واني اقول: كم من جبار أخذه الله أخذ عزيز منتقم.

<u>مبنى قاعدة كون الامة التي لا يشعر اكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية هو :</u>

ان الامة اذا ضُربت عليها الذلة والمسكنة وتوالت على ذلك القرون والبطون، تصير تلك الامة سافلة الطباع حسبما سبق تفصيله في الأبحاث السالفة، حتى إنها تصير كالبهائم، أو دون البهائم، لا تسأل عن الحرية، ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة، أو للنظام مزية، ولا ترى لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها، أحسن أو أساء على حد سواء؛ وقد تنقم على المستبد نادراً ولكن طلباً للانتقام من شخصه لا طلباً للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئاً إنما تستبدل مرضاً بمرض كمغص بصداع.

وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر تتوسم فيه أنه أقوى شوكة من المستبد الأول؛ فاذا نجحت لا يغسل هذا السائق يديه الا بماء الاستبداد فلا تستفيد أيضا شيئاً، إنما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض حدّ؛ وربما تنال الحرية عفواً فكذلك لا تستفيد منها لأنها لا

تعرف طعمها فلا تهتم بحفظها، فلا تلبث الحرية ان تنقلب الى فوضى، وهي إلى إستبداد مشوش اشد وطأة كالمريض إذا انتكس. ولهذا قرر الحكماء إن الحرية التي تنفع الأمة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، وأما التي تحصل على اثر ثورة حمقاء فقلما تفيد شيئاً، لأن الثورة غالباً تكتفي بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن تنبت وتنمو وتعود أقوى مما كانت أولاً.

فإذا وجد في الأمة الميتة من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولاً : أن يَبثُ فيها الحياة وهو العلم، أي علمها بأن حالتها سيئة وإنما بالإمكان تبديلها بخير منها، فاذا هي علمت يبتدأ فيها الشعور بآلام الاستبداد، ثم يترقى هذا الشعور بطبعه من الآحاد الى العشرات، الى الى...، حتى يشمل أكثر الامة وينتهي بالتحمس ويبلغ بلسان حالها الى منزلة قول الحكيم المعري :

اذا لم تقم بالعدل فينا حكومة فنحن على تغييرها قدراء

وهكذا ينقذف فكر الأمة في واد ظاهر الحكمة يسير كالسيل، لا يرجع حتى يبلغ منتهاه. ثم أن الأمم الميتة لا يندر فيها ذوو الشهامة، إنما الأسف أن يندر فيها من يهتدي في أول نشأته إلى الطريق الذي به يحصل على المكانة التي تمكنه في مستقبله من نفوذ رأيه في قومه. أني انبه فكر الناشئة العزيزة إن من يرى منهم في نفسه استعداداً للمجد الحقيقي فليحرص على الوصايا الآتية البيان:

1- أن يجهد في ترقية معارفه مطلقاً لا سيما في العلوم النافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية، وتاريخ قومه الجغرافي والطبيعي والسياسي، والادارة الداخلية، والادارة الحربية، فيكتسب من أصول وفروع هذه الفنون ما يمكنه إحرازه بالتلقي وان تعذر فبالمطالعة مع التدقيق.
2- أن يتقن أحد العلوم التي تكسبه في قومه موقعاً محترما وعلمياً مخصوصاً كعلم الدين والحقوق أو الإنشاء أو الطب .
3- أن يحافظ على آداب وعادات قومه غاية المحافظة ولو أن فيها بعض اشياء سخيفة .
4- أن يقلل اختلاطه مع الناس حتى مع رفقائه في المدرسة وذلك حفظاً للوقار وتحفظاً من الارتباط القوي مع أحد كيلا يسقط تبعاً لسقوط صاحب له .
5- أن يتجنب كلياً مصاحبة الممقوت عند الناس لا سيما الحكام ولو كان ذلك المقت بغير حق .
6- أن يجهد ما أمكنه في كتم مزيته العلمية على الذين هم دونه في ذلك العلم لأجل أن يأمن غوائل حسدهم، إنما عليه أن يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .
7- أن يتخير له بعض من ينتمي اليه من الطبقة العليا، بشرط : أن لا يكثر التردد عليه، ولا يشاركه في شؤونه، ولا يظهر له الحاجة، ويتكتم في نسبته اليه.

8- أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه والا يؤخذ عليه تبعة رأي يراه أو خبر يرويه .
9- أن يحرص على أن يعرف بحسن الأخلاق لا سيما الصدق والأمانة والثبات على المبادئ .
10- أن يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن .
11- أن يتباعد ما أمكنه من مقاربة المستبد وأعوانه ألا بمقدار ما يأمن به فظائع شرهم إذا كان معرضاً لذلك.

فمن يبلغ سن الثلاثين فما فوق حائزاً على الصفات المذكورة، يكون قد اعد نفسه على اكمل وجه لإحراز ثقة قومه عندما يريد في برهة قليلة، وبهذه الثقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز. وما ينقصه من هذه الصفات ينقص من مكانته، ولكن قد يستغني بمزيد كمال بعضها عن فقدان بعضها الآخر أو نقصه. كما أن الصفات الأخلاقية قد تكفي في بعض الظروف عن الصفات العلمية كلها ولا عكس. واذا كان المتصدي للإرشاد السياسي فاقد الثقة فقدانا أصلياً أو طارئاً، يمكنه أن يستعمل غيره ممن تنقصه الجسارة والهمة والصفات العلمية. والخلاصة ان الراغب في نهضة قومه، عليه أن يهيئ نفسه ويزن استعداده ثم يعزم متوكلا على الله في خلق النجاح .

ومبنى قاعدة أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم بالحكمة والتدريج هو :

أن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاسبتداد هي ترقي الأمة في الإدراك والاحساس، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس. ثم أن اقتناع الفكر العام وإذعانه إلى غير مألوفه، لا يتأتى إلا في زمن طويل، لان العوام مهما ترقوا في الادراك لا يسمحون باستبدال القشعريرة بالعافية إلا بعد التروي المديد، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمسارعة لانهم ألفوا أن لا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة إلا الغش والخداع غالباً. ولهذا كثيراً ما يحب الاسراء المستبد الاعظم اذا كان يقهر معهم بالسوية الرؤساء والاشراف، وكثيراً ما ينتقم الاسراء من الأعوان فقط ولا يمسون المستبد بسوء، لأنهم يرون ظالمهم مباشرة هم الأعوان دون المستبد، وكم احرقوا من عاصمة لاجل محض التشفي باضرار أولئك الاعوان.

ثم إن الاستبداد محفوف بأنواع القوات التي فيها قوة الارهاب بالعظمة وقوة الجند، لا سيما اذا كان الجند غريب الجنس، وقوة المال، وقوة الألفة على القسوة، وقوة رجال الدين، وقوة أهل الثروات وقوة الانصار من الاجانب، فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الفكر العام الذي هو أول نشأته يكون أشبه بغوغاءً، ومن طبع الفكر العام انه إذا فاز في سنة يغور في سنة، وإذا فاز يغور في يوم، بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يفعله الثبات والعناد المصحوبين بالحزم والأقدام.

الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً، نعم، الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً، فإذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها ابتداء، حتى إذا سكنت ثورتها نوعاً وقضت وظيفتها في حصد المنافقين، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة، وخير ما تؤسس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة.

العوام لا يثور غضبهم على المستبد غالباً إلا عقب أحوال مخصوصة مهيجة فورية منها :

1. عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه.
2. عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً ، ولا يتمكن من الصاق عار الغلب بخيانة القواد.
3. عقب تظاهر المستبد بإهانة الدين إهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام.
4. عقب تضييق شديد عام مقاضاة لمال كثير لا يتيسر إعطاؤه حتى على أواسط الناس.
5. في حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستبد.
6. عقب عمل للمستبد يستفز الغضب الفوري، كتعرضه لناموس العرض، أو حرمة الجنائز في الشرق، وتحقيره القانون أو الشرف الموروث في الغرب.
7. عقب حادث تضييق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستجارة والاستنصار .
8. عقب ظهور موالاة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدوا لشرفها .

إلى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذه الأحوال التي عندها يموج الناس في الشوارع والساحات، وتملئ أصواتهم الفضاء، وترتفع فتبلغ عنان السماء، ينادون: الحق الحق، الانتصار للحق، الموت أو بلوغ الحق.

المستبد مهما كان غبياً لا تخفى عليه تلك المزالق، ومهما كان عتياً لا يغفل عن اتقائها، كما ان هذه الأمور يعرفها أعوانه ووزراؤه. فإذا وجد منهم بعض يُريدون له التهلكة يهوّرونه على الوقوع في إحداها، ويلصقونها به خلافاً لعادتهم في إبعادها عنه بالتمويه على الناس. ولهذا يقال ان رئيس وزراء المستبد أو رئيس قواده، أو رئيس الدين عنده، هم اقدر الناس على الايقاع به، وهو يداريهم تحذراً من ذلك، واذا اراد اسقاط أحدهم فلا يوقعه الا بغتة.

لمثيري الخواطر على الاستبداد طرائق شتى يسلكونها بالسر والبطء، يستقرون تحت ستار الدين، فيستنبتون غابة الثورة من بذرة او بذورات يسقونها بدموعهم في الخلوات. وكم يلهون المستبد بسوقه الى الاشتغال بالفسوق والشهوات، وكم يغررونه برضاء الأمة عنه، ويجسرونه على مزيد التشديد، وكم يحملونه على إساءة التدبير،

ويكتمونه الرشد، وكم يشوشون فكره بارباكه مع جيرانه وأقرانه. يفعلون ذلك وأمثاله لاجل غاية واحدة، هي إبعاده عن الانتباه إلى سد الطريق التي فيها يسلكون. أما أعوانه، فلا وسيلة لإغفالهم عن إيقاظه غير تحريك أطماعهم المالية مع تركهم ينهبون ما شاؤوا أن ينهبوا.

ومبنى قاعدة انه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد هو :

ان معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل، كما ان معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليها، والمعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً، بل لا بد من تعيين المطلب والخطة تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الكل، او لرأي الاكثرية التي هي فوق الثلاثة أرباع عدداً أو قوة بأس، وإلا فلا يتم الأمر، حيث إذا كانت الغاية مبهمة نوعاً يكون الاقدام ناقصاً نوعاً، واذا كانت مجهولة بالكلية عند قسم من الناس او مخالفة لرأيهم فهؤلاء ينضمون الى المستبد فتكون فتنة شعواء، واذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط، تكون حينئذ الغلبة في جانب المستبد مطلقاً .

ثم اذا كانت الغاية مبهمة ولم يكن السير في سبيل معروف، ويوشك أن يقع الخلاف في اثناء الطريق فيفسد العمل أيضاً وينقلب الى انتقام وفتن، ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص واشهارها بين الكافة، والسعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها ما أمكن ذلك، بل الأولى حمل العوام على النداء بها وطلبها من عند انفسهم. وهذا سبب عدم نجاح الامام علي ومن وليه من أئمة آل البيت رضي الله عنهم، ولعلّ ذلك كان منهم لا عن غفلة، بل عن مقتضى ذلك الزمان من صعوبة المواصلات وفقدان البوستات المنتظمة والنشريات المطبوعة اذ ذاك.

والمراد أن من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد، وليس هذا بالأمر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة آحاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والمغالبة وهذا الإستعداد النظري لا يجوز أن يكون مقصوراً على الخواص، بل لا بد من تعميمه وعلى حسب الإمكان ليكون بعيداً عن الغايات ومعضداً بقبول الرأي العام.

وخلاصة البحث أنه يلزم أولاً تنبيه حس الامة بآلام الاستبداد، ثم يلزم حملها على البحث في القواعد الآساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك افكار كل طبقاتها، والأولى أن يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين بل عشرات السنين حتى ينضج تماماً، وحتى يحصل ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا، والتمني في الطبقات السفلى. والحذر كل الحذر من أن يشعر المستبد بالخطر، فيأخذ بالتحذر الشديد والتنكيل بالمجاهدين، فيكثر الضجيج، فيزيغ المستبد ويتكالب، فحينئذ إما تغتنم الفرصة دولة أخرى فتستولي على البلاد، وتجدد الأسر على العباد بقليل من التعب، فتدخل الامة في دور آخر من الرق المنحوس، وهذا نصيب أكثر الامم الشرقية في القرون الأخيرة.

λ_;